

امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس للحواضر الجزائرية (حاضرة توات أنموذجا)

Extension of the Maliki School in Kairouan and Andalusia to the Algerian cities

(the city of Touat as a model)

أحمد عوماري

إمام أستاذ/ دكتوراه شريعة وقانون

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز دور الفقه المالكي ووحدة المرجعية في التواصل العلمي والتعاون المعرفي، وهذا سُجِّل من امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس إلى حاضرة توات؛ والذي لا يزال مظهرها قائما، ممثلا في التدريس والفتوى وممارسة الشعائر التعبدية. كما أنّ من أهم خصائص هذه المدرسة جمعها بين خصائص المدارس الأخرى (الفقه والرأي، والحديث والعمل) مما جعلها مؤهلة لتغطية مختلف الأقاليم المندرجة تحت طريقتها، لذلك تعد هذه المدرسة وارثة سائر المدارس الفقهية المالكية، متمركزة في القيروان والأندلس؛ ناهيك عن العديد من الحواضر الفقهية الإقليمية، والتي من بينها إقليم توات بالجنوب الجزائري. كما تبنت العديد من الدول الحاكمة في تاريخ الإسلام مذهباً معيناً وتوجهاً فقهياً موحداً، وذلك لما في وحدة المذهب من دور في وحدة المجتمع وتماسكه، وتعاونه وترابطه.

الكلمات المفتاحية: المالكية، القيروان، الأندلس، توات.

Abstract: This research paper aims to high light the role of the Maliki jurisprudence and reference unit in scientific communication and knowledge cooperation, and this was recorded from the extension of the Maliki school in Kairouan and Andalusia to the metropolis of Touat; Its appearance still exists, represented in teaching, fatwas, and the practice of devotional rites. Also, one of the most important characteristics of this school is that it combines the characteristics of other schools (jurisprudence and opinion, hadith and action),

which made it qualified to cover the various regions that fall under its method, therefore, is that this school is the inheritor of all other Maliki schools of jurisprudence, centered in Kairouan and Andalusia; Not to mention the many regional jurisprudential cities, including the Touat region in southern Algeria. Also, many ruling countries in the history of Islam adopted a specific doctrine and a unified jurisprudential approach, because the unity of the doctrine plays a role in the unity and cohesion of society, and its cooperation and interdependence.

Keywords: Malikia, Kairouan, Andalusia, Touat

● مقدمة

لقد سجل التاريخ لعلماء القيروان والأندلس رحلات علمية؛ قادتهم إلى نقطة وصول متمثلة في المدينة المنورة، عند عالمها الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، من أولئك الأعلام علي بن زياد صاحب الفضل في تعريف أهل القيروان وسائر بلاد المغرب بمالك وفقهه، كما كان لزياد بن عبد الرحمن نفس الفضل فيما يتعلق ببلاد الأندلس.

هذا وإن دراسة تاريخ العلم ومسيرة امتداده، والوقوف مع أعلامه؛ لا تقل أهمية عن دراسة العلم نفسه، إذ أنها الدافعة إلى إيقاظ الهمم، وإنارة السبل، وإيضاح المناهج من أجل تحصيل العلم والاستفادة منه في واقع الحياة.

ويهدف البحث إلى إبراز دور الفقه ووحدة المرجعية في التواصل العلمي والتعاون المعرفي في زمن كانت وسائل التواصل وأدواته متواضعة إذا ما قورنت بما هو متواجد اليوم، كما يتم إدراك أن

هناك أسرار في ذلك يلزم الوقوف عليها وعندها؛ في مقدمتها الإخلاص في القصد، والصدق المصاحب للجد في العمل.

والإشكالية التي عمل البحث على جوابها تتمثل في السؤال التالي: ما مدى امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس إلى حاضرة توات، وماهي العوامل التي ساهمت في ذلك؟ وللإجابة على ذلك سلكت خطة تتألف من مبحثين وجملة من المطالب، مع تمهيد في البداية.

- تمهيد: في التعريف بالمدرسة المالكية بالقيروان والأندلس.

- المبحث الأول: عوامل امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس لحاضرة توات.

- المبحث الثاني: مظاهر امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس لحاضرة توات.

تمهيد: في التعريف بالمدرسة المالكية بالقيروان والأندلس

جاء في مقدمة ابن خلدون: "وأما مالك رحمه الله تعالى فاخصّ بمذهبه أهل المغرب والأندلس. وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلّدوا غيره إلا في القليل."⁽¹⁾ ولهذا حينما نتصفح كتب طبقات العلماء بهذه المناطق - مثل: طبقات علماء إفريقية لأبي العرب، وتاريخ علماء الأندلس، ومعجم أعلام الجزائر، والأعلام للزركلي - لا نكاد نقف من بينهم على يتمذهب بمذهب غير مالك إلا قليل.

(1) مقدمة بن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، 1427هـ 2007م. خلدون (ت 808هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، 1427هـ 2007م، ج 01 ص 459.

والمدرسة لغة، هي محل الدراسة. وتطلق المدرسة أيضا على رأي علمي أو اتجاه فكري تنتهي إليه مجموعة معينة من العلماء أو المفكرين⁽²⁾.

أما في اصطلاح فقهاء المالكية فهي عبارة عن اتجاه فقهي أسس له إمام المذهب، وسار عليه تلامذته وأئمة مذهبه، وقدموا فيه إضافاتهم وإسهاماتهم⁽³⁾. وقد كانوا يسمونها الطريقة، كما جاء في الرسالة ابن أبي زيد وشرحها. قوله: "(على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته)... أن مذهبه هو ما قاله هو، وطريقته ما قاله أصحابه"⁽⁴⁾. وكما جاء في قول ابن خلدون: "وتميزت للمذهب المالكي ثلاث طرق: للقرويين وكبيرهم سحنون الآخذ عن ابن القاسم، وللقرطبيين وكبيرهم ابن حبيب. الآخذ عن مالك..."⁽⁵⁾.

(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار)، دار الدعوة، ج 01 ص 280. بدون تاريخ ورقم الطبع.

(3) انظر: المدارس الفقهية المالكية قراءة النشأة والخصائص، محمد أو إيدر مشنان، بحوث الملتقى الوطني المعنون ب: الفقه المالكي في بلاد توات، منعقد أيام: 10-11 رجب 1431 هـ / 23-24 جوان 2010م، أدرار/ الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، دار الحكمة للنشر والترجمة والطباعة والتوزيع، ص 16.

(4) الرسالة مع شرح الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غانم شهاب الدين النفراوي (ت 1126هـ)، دار الفكر الطبعة، 1415هـ - 1995م، بدون رقم الطبعة، ج 01 ص 01.

(5) مقدمة ابن خلدون، ج 01 ص 459. مصدر سابق.

فيكون مفهوم المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس كالتالي: هي الاتجاهات الفقهية التي تفرعت عن مذهب مالك؛ وفقا لاجتهادات فقهاء بلاد المغرب الإسلامي (شمالا وجنوبا)،⁽⁶⁾ والتي استقرت في إقليمي القيروان والأندلس وما جاورها⁽⁷⁾.

ومن أهم أعلام هذه المدرسة بالقيروان: علي بن زياد التونسي (ت 183 هـ 799 م)⁽⁸⁾. وأسد بن الفرات (ت 213 هـ 828 م).⁽⁹⁾ وسحنون بن سعيد، (ت 240 هـ 854 م)- صاحب المدونة -⁽¹⁰⁾.

(6) هناك من يطلق على هذه المدرسة؛ المدرسة المغربية، ويقصد بها نفسى المعنى (القيروان والأندلس)، وهناك من يفرد الأندلس بالذكر ويفصلها عن القيروان، لكن الأصح أنهما مدرسة واحدة، لأن أعلام المذهب يطلقون على أعيانها مصطلح المغاربة. راجع: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته خصائصه وسماته، محمد المختار محمد المامي، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين/الإمارات، ط الأولى، 1422 هـ 2002 م، ص 95. واصطلاح المذهب عند المالكية، محمد إبراهيم علي، دار البحوث للدراسات الإسلامية لإحياء التراث، الإمارات العربية/دبي، الطبعة 2، 1423 هـ/2002 م، ص 79/72.

(7) المدارس الفقهية المالكية قراءة النشأة والخصائص. محمد أو إيدر مشنان، المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

(8) يعد أول من نقل المذهب المالكي لبلاد المغرب، قال في ترتيب المدارك: "... علي بن زياد من أهل تونس ثقة مأمون (خير) متعبد بارع في الفقه ممن يخشى الله عز وجل مع علوه في الفقه ... ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت 544 هـ)، تحقيق ابن تاويتالطنجي وآخرون، مطبعة فضالة - المحمدية/ المغرب، ط الأولى، ج 03 ص 80 وما بعدها.

(9) صاحب الفضل الأول في تأليف المدونة، وقد أدرك مالكا وأخذ عنه وسمع منه الموطأ، بعد أن تفقه على يد علي بن زياد، كما أخذ الفقه الحنفي عن أعلامه بالعراق من، وكان عالما نحرياً، ومع علمه كان شجاعاً غازياً. ترتيب المدارك، ج 03 ص 291 وما بعدها، مصدر سابق. الديباج المذهب، ج 01 ص 302.

مصدر سابق

وأبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ 996م) (مالك الصغير) وغيرهم⁽¹¹⁾.

ومن أعلامها بالأندلس زياد بن عبد الرحمن (193 هـ 808م)⁽¹²⁾.

ويحي بن يحي الليثي (ت 234 هـ 848م)⁽¹³⁾.

وعبد الملك بن حبيب (ت 238 هـ 852م) إلخ⁽¹⁴⁾.

ومن أهم خصائص هذه المدرسة جمعها بين خصائص المدارس المالكية الأخرى، فجمعوا بين بمنهج المدنيين في تقديم الحديث على العمل؛ وبين منهج المصريين في الاعتماد على عمل أهل المدينة،

(10) قال الإمام الذهبي: "الإمام، العلامة، فقيه المغرب، أبو سعيد عبد السلام لازم ابن وهب، وابن القاسم، وأشهب حتى صار من نظرائهم. وساد أهل المغرب، في تحرير المذهب ... وكان موصوفاً بالعقل والديانة التامة". سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت: 748 هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة، 1405 هـ 1985 م، ج 09 ص 463.

(11) قال في ترتيب المدارك: "كان أبو محمد رحمه الله، إمام المالكية في وقته، وقدوتهم ... وحاز رئاسة الدين والدنيا. وإليه كانت الرحلة من الأقطار، ونجب أصحابه... وملأت البلاد تواليقه". ترتيب المدارك، ج 06 ص 216، مصدر سابق.

(12) هو الملقب بشبطون، وهو أول من أدخل موطأ مالك وفقهه إلى الأندلس. وهو ممن أخذوا الفقه والعلم عن الإمام مالك مباشرة. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون اليعمرى (ت 799 هـ)، تحقيق وتعليق: محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، بدون ترقيم وتاريخ الطبع، ج 01 ص 370.

(13) هو أهم من مكن للمذهب المالكي في مرحلته الأولى بالأندلس، فقد قادته رحلته العلمية إلى مالك وروى عنه كتابه الموطأ، ثم إلى مصر وأخذ عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب. وكان يشبه الإمام مالك في الهبة والسمت. ترتيب المدارك، ج 03 ص 380. مصدر سابق.

(14) قال في الديباج: "عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي... وألف كتباً كثيرة حسناً في الفقه والتاريخ والأدب منها: الكتب المسماة بالواضحة في السنن والفقه لم يؤلف مثلها.. إلخ" الديباج المذهب، ج 02 ص 11. مصدر سابق.

مستفيدين من ذلك عند التعارض والترجيح. كما أخذوا بكثرة التفرعات والفرضيات، والاستدلال للمذهب ومقارنته بالمذاهب الأخرى، وهذه من خصائص المدرسة العراقية⁽¹⁵⁾.

وقد امتدت المدرسة إلى مختلف الحواضر العلمية بمركزها (القيروان والأندلس)، ومنها الحواضر الفقهية المالكية بالجزائر، لتصل إلى أقصى الجنوب الجزائري؛ إلى حاضرة توات. وأرض توات هي إقليم كبير، يتكون من تجمعات سكانية تسمى: القصور، وبها واحات من النخيل (بساتين)، تسقى من خلال مياه آبار تسمى الفقاير. ويقع أساسا بالجنوب الغربي من تراب الجمهورية الجزائرية، وتمتد قليلا ناحية الشرق⁽¹⁶⁾.

وعليه سيتم البحث في عوامل امتداد هذه المدرسة المالكية لأرض توات، ثم بعد ذلك يكون التطرق إلى مظاهر المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس بأرض توات.

المبحث الأول: عوامل امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس إلى حاضرة توات

لا شك أن هناك عوامل عديدة ومختلفة ساهمت في امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس وتمركزها بحاضرة توات، ولكن الحديث ينصب عن أبرز تلكم العوامل، وهي عامل الموقع الجغرافي. وعامل الرحلات العلمية، إضافة إلى عامل الحكم والسياسة.

(15) المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته خصائصه وسماته، ص 114، مرجع سابق.

(16) وإقليم توات تاريخيا يتكون من ثلاث مناطق: قورارة/ وتوات الوسطى/ وتيديكلت. ومعظمها سابقا كان يقع بولاية أدرار، أي قبل سنة 2021م؛ لكن اليوم أصبحت تنقسمها ثلاث ولايات: أما الإقليم الشمالي منها (قورارة) فأصبح تابعا لولاية تيميمون، والإقليم الأوسط (توات الوسطى) بقي في ولاية أدرار، والإقليم الجنوبي (تديكلت) تنقسمه كل من ولاية أدرار وولاية عين صالح. انظر: الفوات من تاريخ توات وصحاري الجهات، عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتاب الملكي/وزارة الثقافة، الجزائر، ط 01 1434هـ/2013م، ج 01 ص 22.

المطلب الأول: عامل الموقع الجغرافي

لقد قُسمت المدارس المالكية وسميت على أساس جغرافي إقليمي، وذلك انطلاقاً من أقاليم الأعلام الذين أخذوا فقه الإمام مالك عنه مباشرة أو عن طريق أصحابه، كما لا يخفى أن لطبيعة المكان بما يتضمنه من خصائص معينة، دور مهم وتأثير كبير في طبيعة الأحكام السائدة، والمناهج الفقهية المناسبة⁽¹⁷⁾. ومن الجوانب المهمة في العامل الجغرافي؛ أن تواترتواجد مكنيا بين مناطق تعتبر مراكز ومعامل للمذهب المالكي، فبجوارها من الجهة الشرقية شمالا تتواجد مدينة القيروان مركز المذهب المالكي الأول بالمنطقة. ومن الجهة الغربية تتواجد مدينة فاس وسجلماسة⁽¹⁸⁾، أما من جهة الشمال فهناك تلمسان غربا وبجاية شرقا، إضافة إلى مدينة الجزائر. وكل هذه تعتبر حواضر ومراكز للعلم وللمذهب المالكي، كما سيتبين من خلال الرحلات العلمية.

ومن ناحية أخرى فإن أرض تواتت شبيه ببلاد الحجاز في ظروفها ومناخها وطبيعتها، وبالأخص المدينة المنورة بلد مسقط رأس ومنشأ إمام المذهب، فكلتا أرض ذات بساتين من النخيل، وزرعها ونخيلها تسقى من آبار، فليس بها من الأمطار أو الأنهار ما يسد الحاجة للسقي وغيره⁽¹⁹⁾. وهذا له إسهامه في أن تكون المنطقة على هذا المنهج العلمي والمنحى الفقهي.

المطلب الثاني: عامل الرحلات العلمية

تعتبر الرحلات العلمية من أهم مصادر المعرفة والتفقه في الدين، وبالنسبة لمنطقة توات فإن حركاتها العلمية في أغلبها كانت بينها وبين البلاد والأقاليم التي تعتبر قلاعا وحواضر للمدرسة

(17) أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته عند حديثه عن تمسك المغرب الإسلامي بمذهب مالك. مقدمة بن خلدون ج 01 ص 457، مصدر سابق.

(18) مدينة تاريخية تقع في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان. معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626هـ) دار صادر، بيروت/لبنان، الطبعة الثانية، 1995م، ج 03 ص 192، مصدر سابق.

(19) راجع في وصف المدينة المنورة؛ معجم البلدان، ج 05 ص 82. مصدر سابق.

القيروانية والأندلسية. مثل تلمسان وبجاية بالشمال، ومثل مدينتي فاس ومراكش بالمغرب الأقصى، إضافة إلى مدينة القيروان⁽²⁰⁾. ومن النماذج للرحلات العلمية ما يتمثل في الآتي:

العلامة مولاي سليمان بن علي (ت 670 هـ 1271 م)، جاء من فاس في أواخر القرن السادس الهجري أواخر الثاني عشر الميلادي، وأسس مدرسة وزاويته لنشر العلم والفقه في المنطقة، وانتفع من خلاله خلق كثير⁽²¹⁾.

الشيخ سيدي عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ 1503 م) والذي جاء من تلمسان، ورحل إلى بجاية والتقى بمن فيها من العلماء، ثم استقر بتوات في خدمة الفقه والدين⁽²²⁾.

الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التنيلاني (ت 1152 هـ 1739 م)، الذي رحل إلى فاس وظل بها اثني عشر سنة، فأخذ الفقه وسائر العلوم عن أعلام كبار من المالكية، منهم الشيخ محمد بن أحمد المسناوي، والشيخ أحمد بن المبارك السجلماسي، والشيخ محمد بن محمد ميارة وغيرهم، ثم عاد إلى توات وظل بها كذلك في خدمة الفقه والدين⁽²³⁾.

(20) المدرسية الفقهية المالكية بالجزائر ملامحها ونبوغها- د موسى إسماعيل – أعمال الملتقى الوطني الخامس للمذهب المالكي بعين الدفلة، دار الثقافة بولاية عين الدفلى، ربيع الثاني 1430 هـ أبريل 2009 م.

(21) قطف الزهرات من أخبار علماء توات، الشيخ عبد العزيز سيد عمر، طبع سنة 2002، بدون ذكر الطباعة؛ ص 132.

(22) معجم أعلام الجزائر، ج 01 ص 308، مرجع سابق. جهود فقهاء توات في خدمة المذهب المالكي دراسة في الأعلام والموضوعات، د أحمد جعفري/ جامعة أدرار، أعمال الملتقى الدولي الثالث عشر بعنوان: المذهب المالكي: تاريخ وأفاق، نوفمبر 2010 م منشورات جامعة أدرار العدد الثالث، المطبعة العربية، غرداية – الجزائر، ص 460.

(23) الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن التنلاني، محمد عبد القادر بن محمد الجزائري الشهير بالشيخ باي بلعالم (ت 1430 هـ)، مطبعة دار هومه، 2004 م، الجزائر، ص 08 وما بعدها. والشيخ سيدي عمر هو شيخ ومربي الشيخ سيدي عبد الرحمن، نفس المرجع والصفحة.

ومنهم عالم توات الشيخ الرحالة عبد الكريم بن محمد التواتي (ت 1042 هـ 1632 م)، الذي رحل إلى فاس ومراكش وسجلماسة⁽²⁴⁾.

ومنهم العالم القاضي الشيخ البكري بن عبد الكريم بن محمد (ت 1033 هـ 1623 م)، والذي كانت له رحلة علمية حافلة، بدأت من تونس، ثم إلى ليبيا، ثم إلى مصر والتقى بالعلامة الخرشي مفتي المالكية بها، كما ذهب إلى البقاع المقدسة، وكان له اتصال بفاس ومراكش، وغيرهم⁽²⁵⁾.

المطلب الثالث: عامل الحكم والسياسة

إن معظم من حكموا منطقة الجزائر (شمالا وجنوبا) وما حولها من البلاد كانوا سنيين، خدموا المذاهب السنية وأسسوا لها؛ ممثلة في المذهب المالكي والذي ظل سائدا، رغم محاولة الفاطميين، وجهود الموحدين في طمس ذلك⁽²⁶⁾.

فلقد كان لبعض الدول الحاكمة في المنطقة المجاورة لتوات، أو تلك المرتبطة بها علميا دور في ذلك في نشر المذهب المالكي بتوات، على غرار دولة المرابطين بمراكش والتي ظهرت في أواخر القرن الخامس وبداية السادس الهجري (من 453 إلى 541 هـ)، ودولة المرينيين بفاس (من 641 إلى 869 هـ).

(24) جهود فقهاء توات في خدمة المذهب المالكي، ص 461، مرجع سابق.

(25) رحلات التواتيين، ص 104/107. نقلا عن مداخلة: المدرسة المالكية في الجنوب الجزائري، د عز الدين كشنيط/جامعة تمناست، أعمال الملتقى الوطني الخامس للمذهب المالكي، ص 150، مرجع سابق.

(26) راجع: الدولة الفاطمية، علي محمد محمد الصَّلَّابي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة/مصر، الطبعة الأولى، 1427 هـ 2006 م، صفحات 121/و 528 وما بعدها. والفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن بن العربي الثعالبي الجعفري الفاسي (ت 1376 هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، ط الأولى 1416 هـ 1995 م، ج 02 ص 191/192.

ودولة الزيانيين بالجزائر (من 633 إلى 962 هـ)، والدولة السعيدية بفاس (من 961 إلى 1069 هـ)، والتي

خدمت العلم والفقه خدمة كبيرة، خاصة السلطان أحمد المنصور (ت 1012 هـ/ 1603 م)⁽²⁷⁾.

بل إن بعض الأمراء وولاة الأمور حملوا الناس عليه توحيدا للبلاد ودرء للاختلاف، كما فعل المعز بن باديس الصنهاجي (ت 454 هـ/ 1062 م) بتونس وما حولها من البلاد⁽²⁸⁾. ونفس الأمر حصل بالأندلس، حتى قال ابن حزم: "مذهبنا انتشرا في بدء أمرهم بالرئاسة والسُّلطان، مذهب أبي حنيفة بالعراق، ومذهب مالك عندنا بالأندلس"⁽²⁹⁾، فهذه الدول رغم أنها لم تكن في أغلبها باسطة نفوذها على توات، إلا أن تعاقبها وبسط نفوذها في غالب فترات تاريخ المنطقة، كان عاملا من عوامل تيسير الحركة العلمية بين مختلف المراكز العلمية.

(27) أطلق عليه بأنه (خليفة العلماء وعالم الخلفاء) وقد دام حكمه 26 سنة. معجم المؤلفين، عمر بن رضا بن محمد راغب (ت 1408 هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت/ لبنان، بدون تاريخ وترقيم الطبع، ج 02 ص 183. مدرسة المغرب الأقصى في المذهب المالكي ومدى امتدادها من المدرسة الأولى، مصطفى أحمد علي القضاة، بحوث الملتقى الأول للقاضي عبد الوهاب المالكي، ج 01 ص 377. مرجع سابق.

(28) قال فيه الإمام الذهبي: "كَانَ مُلْكًا مَهِيْبًا، سَرِيًّا شَجَاعًا، عَالِي الْهِمَّة، مُجِبًّا لِلْعِلْم، كَثِيرَ الْبَذْلِ ... فَحَمَلَ أَهْلَ بِلَادِهِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ حَسَمًا لِمَادَةِ الْخَلَاف، خَلَعَ طَاعَةَ الْعُبَيْدِيَّة، وَخَطَبَ لِلْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ الْعَبَّاسِيِّ". سير أعلام النبلاء، ج 18 ص 140، مصدر سابق. وانظر مالك حياته وعصره وراؤه الفقهية، محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي، بدون رقم وتاريخ الطبع، ص 488.

(29) بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد، أبو جعفر الضبي (ت 599 هـ) دار الكاتب العربي، القاهرة/مصر، 1967، ص 511.

المبحث الثاني: مظاهر امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس لحاضرة توات

أما عن مظاهر امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس لتوات؛ فيتجلى ذلك في عدة مظاهر، ولكن أهمها مظهران، تتم تجليتهما من خلال مطلبين: أولهما في طبيعة المصنفات في المذهب بالمنطقة. وثانيهما في طبيعة المصادر المعتمدة بها في التدريس والفتوى.

المطلب الأول: طبيعة المصنفات في المذهب

تناول فقهاء توات التأليف في الفقه المالكي، ومؤلفاتهم لا تكاد تخرج عن الإطار العام للمصنفات التي تندرج ضمن المدرسة المالكية محل الدراسة، فقد تناولوا أمهات الكتب المعتمدة في هذه المدرسة بالشرح والتقييد والنظم وشبه ذلك. ومن ذلك على سبيل التمثيل:

- (أ) - شروح على مختصر خليل⁽³⁰⁾ - والذي عليه وعلى شراحه يعتمد في الأحكام والفتوى في المنطقة -: منها شرح للشيخ سيدي عبد الكريم المغيلي، والمسمى: مغني النبيل في شرح مختصر خليل (مخطوط). وشرح سيدي عبد الرحمن القنتوري القراري (ت 1159هـ/1747م)، وشرح سيدي عبد الكريم بن محمد التواتي، بدأه ولم يتمه، وقد كان إماما عالما وقاضيا للجماعة بتوات.⁽³¹⁾
- (ب) - حواشي على شراح ومختصرات، والتي من بينها: حاشية الشيخ سيدي عبد الكريم بن محمد على مختصر اللقاني لابن الحاجب. وحاشية للشيخ سيدي محمد الجزولي على شرح علي بن

(30) مختصر خليل: كتاب اعتمد مؤلفه في تصنيفه على أمهات وأئمة المذهب المغاربة (قيروانيين وأندلسيين)، كما أشار إلى ذلك في مقدمته بقوله: " مشيرا بـ"فيها" للمدونة وبـ"أول" إلى اختلاف شارحيها في فهمها. وبـ"الاختيار" للخي، لِكِنْ إِنْ كَانَ بِصِغَةِ الْفِعْلِ فَذَلِكَ لِاخْتِيَارِهِ هُوَ فِي نَفْسِهِ وَبِالْأَسْمِ فَذَلِكَ لِاخْتِيَارِهِ مِنَ الْخِلَاف. وبـ"الترجيح" لابن يونس كذلك. وبـ"الظهور" لابن رشد كذلك وبـ"القول" للمازري كذلك ". مختصر العلامة خليل، خليل بن إسحاق الجندي المصري (ت 776هـ)، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث/القاهرة، الطبعة: الأولى، 1426هـ/2005م، ص 11.

(31) جهود فقهاء توات في خدمة المذهب المالكي، ص 459 وما بعدها، مرجع سابق.

عبد الرحمن المنجوري (ت 995هـ 1586م) على منظومة: المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب،⁽³²⁾ وهو نظم للعلامة علي بن قاسم التجيبي المعروف بالزقاق (ت 912هـ 1506م)⁽³³⁾.

(ج) – مؤلفات أخرى، والتي نذكر منها: شبكة القناص لما حوته درة الغواص، وهي موسوعة من بحر الرجز، بما يزيد على الألف وسبع مائة بيت في الألغاز الفقهية وأجوبتها، للشيخ سيدي عبد الرحمن بن سيدي امحمد بن احمد (ت1209هـ 1795م)⁽³⁴⁾. وكتاب فتح الإله المالك على النظم المسمى بأسهل المسالك، للشيخ مولاي احمد الطاهري الإدريسي (ت1399هـ 1979م)⁽³⁵⁾. وكتاب المنح الربانية في الفتاوى الفقهية المالكية، لنفس المؤلف. وكتاب فتح الرحيم المالك في مذهب الإمام مالك، للشيخ باى بن محمد بلعالم (1430هـ 2009م)،⁽³⁶⁾ وغيرها.

(32) الكتاب مطبوع بتحقيق محمد الشيخ محمد الأمين. دار عبد الله الشنقيطي للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

(33) سلسلة علماء توات، عبد الحميد بكري' ج 01 ص 17. بدون معلومات الطبع.

(34) جهود فقهاء توات في خدمة المذهب المالكي، ص 463، مرجع سابق.

(35) طبع بالمطبعة العلوية بمستغانم/الجزائر، سنة 1994م.

(36) جهود فقهاء توات في خدمة المذهب المالكي، ص 471/472، مرجع سابق.

المطلب الثاني: طبيعة المصادر المعتمدة في التدريس والفتوى

المظهر الثاني يتمثل في المصادر المستند إليها في الثقافة الفقهية عموما في توات. والتي بالنظر فيها نجدها كلها منبثقة من هذه المدرسة، ومن أهمها:

(1) المرشد المعين وشروحه، للعلامة عبد الواحد بن أحمد المعروف بابن عاشر الأندلسي ثم الفاسي (ت 1040 هـ 1582 م)،⁽³⁷⁾ وهذا المؤلف هو نظم لا تكاد تخلو من تدريسه مدرسة داخلية (وهي ما تعرف في بعض المناطق بالزاوية) أو مسجد، أو مدرسة تابعة لمسجد... الخ. والكتاب يدرس للطلبة المبتدئين، كما يدرس لعوام الناس في المسجد،⁽³⁸⁾ ولذلك يقول في مقدمته: وبعد فالعون من الله المجيد في نظم أبيات للأمي تفيد⁽³⁹⁾.

(2) كتاب الرسالة وشروحه. للإمام عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وهذا يدرسه عادة المتوسطون من طلبة الفقه، وهو مع شروحه معتمد في الفتوى⁽⁴⁰⁾.

(37) وهو ممن نزح أجداده إلى فاس بعد سقوطها، كان فقها أصوليا متكلمًا، عالما عاملا أخذ عن شيوخ وأعلام، وأخذ عنه فقهاء، وله مؤلفات عديدة مفيدة. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة/مصر، 1349 هـ 1930 م، ص 299.

(38) المنهج الفقهي عند الشيخ محمد بن الكبير (أطروحة دكتوراه)، عبد الحق بكاروي، كلية العلوم الإسلامية، تخصص فقه وأصول، جامعة باتنة 2017 م، ص 138.

(39) أهم شروحه المعتمدة بالمنطقة هو: الدر الثمين والموارد المعين على المرشد المعين، للشيخ محمد بن أحمد الفاسي المعروف بميارة (1072 هـ 1661 م). وهناك مختصر لهذا الشرح لنفس المؤلف، عليه حاشية للعلامة محمد الطالب بن حمدون بن الحاج (1273 هـ 1856 م)، ونعرف بحاشية بن حمدون، وهي مفيدة نفيسة؛ مقدمة عند عامة الشيوخ والمدرسين.

(40) أهم شروحه المتداولة والمعتمدة بتوات شرحان: أولهما بعنوان كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي يد القيرواني، للشيخ علي أبي الحسن، وعليه حاشية لعلي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي (ت 1189 هـ 1775 م)، ويعرف الكتاب بحاشية العدوي. طبع مع تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي عن دار الفكر بيروت، لبنان سنة 1414 هـ - 1994 م وله طبعات قبل ذلك لعل أقدمها ما صدر عن مطبعة

(3) مختصر خليل وشروحه،⁽⁴¹⁾ للعلامة خليل بن إسحاق المالكي المصري، المعروف بالجندي.⁽⁴²⁾ ومختصر خليل يدرس عادة للمتقدمين في الفقه⁽⁴³⁾.

هذه أكثر المصادر المعتمدة في التدريس والفتوى في الإقليم، وهناك غيرها من متون ومؤلفات في المذهب التابعة لهذه المدرسة، مثل: أقرب السالك للشيخ أحمد الدردري وشروحه لنفس المؤلف، ومختصر الشيخ سيدي الرحمن الأخضر الجزائري في العبادات، ونظم أسهل المسالك وشروحه وغير ذلك⁽⁴⁴⁾.

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة سنة 1357 هـ 1938 م. وثاني الشرحين هو بعنوان: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي يد القيرواني، وهو شرح مفصل ووافي إلى حد كبير. للشيخ أحمد بن غانم بن سالم النفراوي الأزهري (ت 1126 هـ 1714 م). من طبعاته المتداولة ما صدر عن دار الكتب العلمية: بيروت/لبنان سنة: 1418 هـ 1997 م، في طبعها الأولى.

(41) توجد شروح عديدة لمختصر خليل بالمنطقة، منها مواهب الجليل على مختصر خليل، لمحمد بن محمد الحطاب الطرابلسي (954 هـ 1547 م). وتاج الإكليل على مختصر خليل، لمحمد بن يوسف المواق الغرناطي (897 هـ 1491 م)؛ لكن الشرح الأكثر تداولاً واستعمالاً هو: ما يعرف بحاشية الدسوقي لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت 1230 هـ 1814 م)، على شرح الشيخ أحمد الدرديري (1201 هـ 1715 م)، ولعل السبب في ذلك أنه جاء مقتبساً من تلك الشراح وملخصاً لما جاء فيها، كما أخبر بذلك في مقدمته. ومن أقدم الطباعات للكتاب طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، بالقاهرة/ مصر، لكنها بدون تاريخ.

(42) كان - رحمه الله - صديقاً في علماء القاهرة المعزية مجتمعاً على فضله وديانته أستاذاً ممتعاً من أهل التحقيق ثاقب الذهن أصيل البحث...، الديباج المذهب ج 01 ص 358، مصدر سابق. وانظر: شجرة النور الزكية، ص 223 مرجع سابق.

(43) المنهج الفقهي، ص 147، مرجع سابق. وراجع في كل ما تقدم: الفقه المالكي في بلاد توات اجتهدا وتدريسا، بحوث الملتقى الوطني: الفقه المالكي في بلاد توات، صفحات: 125/89/67 وما بعدها، مرجع سابق.

(44) المنهج الفقهي، ما بين ص 137 وص 155، مرجع سابق.

خاتمة

بدأ انتشار مذهب الإمام مالك رحمه الله في حياته؛ بدءاً من أواخر النصف الأول من القرن الثاني، عن طريق الآخذين عنه من أصحابه من مختلف الأمصار، من الحجاز، ومن العراق، ومن مصر، ومن الأندلس والقيروان.

وكان من أهل القيروان الإمام علي بن زياد الذي يعد أول من أدخل المذهب المالكي القيروان في منتصف القرن الثاني؛ ثم جاء في آخر هذا القرن أسد ابن الفرات، في رحلة علمية حافلة شملت الحجاز- حيث الإمام مالك - ومصر والعراق، وأخذ عن الأعلام بها وعاد إلى القيروان بعلم جم وفقه غزير.

ثم بعد ذلك جاء سحنون صاحب اليد الطولى في نشر المذهب بالقيروان وما حولها، وهو قد أخذ الفقه عن عبد الرحمن بن القاسم وعن ابن وهب وهما مصريان، كما أخذ عن ابن الماجشون ومطرف وهما مدنيان، وسحنون هو صاحب الدور الأهم في تأليف المدونة في شكلها الأخير؛ تلك المدونة التي ظلت المصدر الأول في المذهب عبر التاريخ وفي مختلف البقاع الواقعة ضمن جغرافية المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس. وفي حاضرة توات تحديدا نجد مختصر الشيخ خليل المصري - المصدر الأساس للأحكام - يعتمد على المدونة قائلًا في مقدمة مختصره: "مشيرا بـ"فيها" للمدونة وبـ"أول" إلى اختلاف شارحيها في فهمها". ومن خلال هذا العرض تتجلى لنا النتائج التالية:

أولاً: تسجيل امتداد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس إلى حاضرة توات؛ بحيث لم تزل مظاهرها قائمة، ممثلة في التدريس والفتوى وممارسة الشعائر التعبدية. ومما ساهم في تعزيز ذلك مواصلة تبني الدولة الجزائرية للمذهب.

ثانياً: امتداد هذه المدرسة لإقليم توات له سببان أساسان: أولهما الرحلات العلمية لعلمائه.

وثانيهما موقع الإقليم المتوسط بين حواضر فقهية مالكية،

ثالثاً: أهمية الرحلات العلمية ودورها في نشر العلم والفقه بين الديار المختلفة والأقطار

المتباعدة.

رابعاً: من أهم خصائص المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس جمعها بين خصائص المدارس الأخرى (الفقه والرأي، والحديث والعمل) مما جعلها مؤهلة لتغطية مختلف الأقاليم المندرجة تحت طريقتها، لذلك تعد المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس وارثة سائر المدارس الفقهية المالكية.

خامساً: تمركزت المدرسة المالكية بالقيروان والأندلس في مركزين رئيسيين: القيروان والأندلس؛ ناهيك عن العديد من الحواضر الفقهية الإقليمية، والتي من بينها إقليم توات بالجنوب الجزائري. سادساً: تبنت العديد من الدول الحاكمة في تاريخ الإسلام مذهباً معيناً وتوجهاً فقهياً محدداً، وذلك لما في وحدة المذهب من دور في وحدة المجتمع وتماسكه، وتعاونيه وترابطه. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله، وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- 1) اصطلاح المذهب عند المالكية، محمد إبراهيم علي، دار البحوث للدراسات الإسلامية لإحياء التراث، الإمارات العربية/دبي، الطبعة 02، 1423هـ/2002م.
- 2) الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي الدمشقي (ت 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، 2002م.
- 3) بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد، أبوجعفر الضبي (ت 599هـ) دار الكاتب العربي، القاهرة/مصر، 1967.
- 4) تاريخ علماء الأندلس، لعبد الله بن محمد بن يوسف المعروف بابن الفرضي (ت 403هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1408هـ - 1988.
- 5) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت 544هـ)، تحقيق ابن تاويت الطنجي وآخرون، مطبعة فضالة - المحمدية/المغرب، ط الأولى.
- 6) جهود فقهاء توات في خدمة المذهب المالكي دراسة في الأعلام والموضوعات، د أحمد جعفري/ جامعة أدرار، أعمال الملتقى الدولي الثالث عشر بعنوان: المذهب المالكي: تاريخ وآفاق، نوفمبر 2010م منشورات جامعة أدرار العدد الثالث، المطبعة العربية، غرداية - الجزائر.
- 7) الدولة الفاطمية، علي محمد محمد الصَّلَّابِّي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة/مصر، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م.
- 8) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون اليعمري (ت 799هـ)، تحقيق وتعليق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، بدون معلومات الطبع.
- 9) الرسالة مع شرح الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غانم شهاب الدين النفراوي (ت 1126هـ)، دار الفكر، الطبعة، 1415هـ - 1995م، بدون رقم الطبعة.
- 10) سلسلة علماء توات، عبد الحميد بكري، بدون معلومات الطبع.

- 11) سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت: 748هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة، 1405هـ 1985م.
- 12) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة/مصر، 1349هـ 1930م.
- 13) طبقات علماء إفريقية، لأبي العرب محمد بن أحمد، (ت 333هـ) دار الكتاب اللبناني، بيروت/لبنان، بدون ترقيم وتاريخ الطبع.
- 14) الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن التنلاني، محمد عبد القادر بن محمد الجزائري الشهير بالشيخ باي بلعالم (ت 1430هـ)، مطبعة دار هومه، 2004م، الجزائر.
- 15) الفقه المالكي في بلاد توات اجتهدا وتدرسا، بحوث الملتقى الوطني: الفقه المالكي في توات.
- 16) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن بن العربي الثعالبي الجعفري الفاسي (ت 1376هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، ط الأولى 1416هـ 1995م.
- 17) الفوات من تاريخ توات وصحاري الجهات، عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتاب الملكي/وزارة الثقافة، الجزائر، ط 01/1434هـ/2013م.
- 18) قطف الزهرات من أخبار علماء توات، الشيخ عبد العزيز سيد عمر، طبع سنة 2002.
- 19) مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ب د معلومات الطبع.
- 20) مختصر العلامة خليل، خليل بن إسحاق الجندي المصري (ت 776هـ)، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث/القاهرة، الطبعة: الأولى، 1426هـ/2005م.
- 21) المدارس الفقهية المالكية قراءة النشأة والخصائص، محمد أو إيدر مشنان، بحوث الملتقى الوطني: الفقه المالكي في بلاد توات، منعقد أيام: 10-11 رجب 1431هـ / 23-24 جوان 2010م، أدرار/ الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، دار الحكمة للنشر والترجمة والطباعة والتوزيع.
- 22) المدرسة المالكية في الجنوب الجزائري، عز الدين كشنيط/جامعة تلمسان، أعمال الملتقى الوطني الخامس للمذهب المالكي.

- (23) مدرسة المغرب الأقصى في المذهب المالكي ومدى امتدادها من المدرسة الأولى، مصطفى أحمد علي القضاة، بحوث الملتقى الأول للقاضي عبد الوهاب المالكي.
- (24) المدرسية الفقهية المالكية بالجزائر ملامحها ونبوغها- موسى إسماعيل - أعمال الملتقى الوطني الخامس للمذهب المالكي بعين الدفلة، دار الثقافة بولاية عين الدفلى، ربيع الثاني 1430 هـ / أبريل 2009 م.
- (25) المذهب المالكي مدارس ومؤلفاته خصائصه وسماته، محمد المختار محمد المامي، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين/الإمارات، ط الأولى، 1422 هـ / 2002 م.
- (26) مُعْجَمُ أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حَتَّى العَصْر الحَاضِر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت/لبنان، الطبعة الثانية، 1980 هـ / 1980 م.
- (27) معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626 هـ) دار صادر، بيروت/لبنان، الطبعة الثانية، 1995 م.
- (28) معجم المؤلفين، عمر بن رضا بن محمد راغب (ت 1408 هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت/لبنان، بدون تاريخ وترقيم الطبع.
- (29) معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار)، دار الدعوة، بدون تاريخ ورقم الطبع.
- (30) مقدمة بن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، عبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، 1427 هـ / 2007 م.
- (31) المنهج الفقهي عند الشيخ محمد بن الكبير (أطروحة دكتوراه)، عبد الحق بكاروي، كلية العلوم الإسلامية، تخصص فقه وأصول، جامعة باتنة 2017 م.